عنوان المداخلة :حدود المنهج التركيبي في استنطاق النص العربي المعاصر

The boundaries of the structural approach in interrogating contemporary Arabic texts

أ.د: ليلى لعوير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص :

تحاول هذه المداخلة الانفتاح على المنهج التركيبي في تحليل النص العربي المعاصر والوقوف على مفهومه وضروراته ومبررات الدعوة النقاد إلى تبنيه في مقاربة النصوص وحدود هذا التبني الكفيل بقراءتها قراءة واعية تضمن الوصول إلى جماليات النص ومعانيه دون غموض أو تعميه أمام اعتقاد سائد عند النقاد بعدم كفاية منهج واحد لبلوغ ذلك .

الكلمات المفتاحية: المناهج الحداثية ،اللسانيات الحديثة،استنطاق النصوص،حدود المنهج التركيبي

Abstract :

This intervention aims to encourage an exploration of the structural analysis approach within contemporary Arabic texts. It delves into its conceptual framework, the essential requirements it poses, and the reasoning behind advocating for its adoption by critics in textual interpretation. Moreover, it emphasizes the necessity of delineating clear boundaries for such adoption to facilitate a discerning reading that unveils the textual aesthetics and meanings without ambiguity or obscurity. This response is prompted by the prevailing notion among critics that a singular method is inadequate for attaining such depth in textual analysis.

Key words: Modern methodologies, modern linguistics, textual interrogation, boundaries of the structural approach.

تمهيد:

لقد انطلقت المناهج الحداثية وما بعد الحداثية، من اللسانيات الغربية التي ازدهرت في هذا القرن ازدهارا كبيرا أبهر الكثير من النقاد العرب المعاصرين، وشكلت وعيا مختلفا عما كان سائدا في الدراسات النقدية العربية التي كانت تنفتح على الشكل والمضمون وتشتغل في التأكيد على الجمال انطلاقا من تتبع مظاهر النص الفنية المرتبطة بالبلاغة القديمة أو بالتجديد المتريث المنفتح على استخدام الرموز والأساطير وغيرها من الأدوات الفنية أو المتعلقة بالسياقات النفسية والتاريخية والاجتماعية السائدة في عوالم الشاعر في الوصول للمعنى، ليؤسس لمنطلقات وآليات جديدة في التعامل مع النص . متأثرة بهذه المناهج، تكون فيه اللغة بؤرة الجمال وتشريح الداخل النصي واجهة الجمالية بآليات إجرائية اختلفت بين منهج ومنهج ولكنها توحدت في الاهتمام بالشكل وفق الرؤية الغربية واهتمت بالأدب بوصفه ظاهرة جمالية وليس ممارسة اجتماعية، هذه المناهج التي تلقاها النقاد العرب بوعي ودون وعي وراحوا يطبقونها على النصوص العربية تماما كما طبقوا في الثلاثينات وما تلاها المناهج السياقية وفق قناعات قدرتها ونجاعتها في تحليل النصوص تأثرا بالمشهد النقدي الغربي ا لذي أنشأ المدارس ومناهجها.

لكن هذه الممارسات النقدية أبانت عن عدم كفاية منهج واحد في تتبع الظاهرة ففؤاد زكريا مثلا يرى أن مطبقي البنيوية مثلا يتعسفون" في تطبيق النموذج اللغوي على كل مجالات العلوم الإنسانية،

وإنكار تعدد النماذج بتعدد ميادين البحث وأنّ البنيوية ليست فلسفة تصلح لمجتمع تسوده التكنوقراطية"[1].

مما طرح سؤال المنهج التركيبي أو المنهج التكاملي الذي يعتبر المصطلح الشائع في الدراسات النقدية كبديل لما يعانيه كل منهج نقدي على حده من قصور.

أولا: مفهوم المنهج التركيبي (التكاملي)وبدايات استعماله:

جاء في الصحاح: " ركب تركيبا إذا وضع بعضه على بعض"[2]. وفي اللسان: تراكب السحب وتراكم إذا صار بعضه فوق بعض"[3]. و" وركب الشيء بمعنى ضمه إلى غيره، فصار بمثابة الشيء الواحد في المنظر، وركب الدواء ونحوه ألفه من مواد مختلفة"[4].

وهو بحسب حدّه اللغوي ينحصر في الضم والجمع والتأليف، ومن ثم استقى النقاد العرب المعاصرون هذا المعنى، وأطلقوا مصطلح المنهج التركيبي والذي يعني المنهج الذي يتم تركيبه من عناصر من مناهج مختلفة تقل وتكثر بحسب درجة التوافق والانسجام بينها ومن أوائل من دعا إليه في النقد الحديث طه حسين وسماّ " المقياس المركب وتابعه في هذا شكري فيصل في المنهج التركيبي وحين اكتفى الثاني بالتنظير، كان يسعى الأول إلى شيء غير يسير من التطبيق"[5]. وهو يقابل لمصطلح المنهج التكاملي الذي دعا إليه سيد قطب في كتابه النقد الأدبي وأوّل من استعمله في النصف الأول من القرن العشرين في دعوته للتكامل بين المناهج السياقية التي كانت تمثل مناهج تلك المرحلة في دراسة النصوص ونقدها.

---

[1]-للتوسع ينظر: عثمان موافي: مناهج النقد الأدبي والدراسات الأدبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2005، ص162

[2]-الجوهري: الصحاح ترجمة أحمد عبد الغفور العطار، دار الملايين، بيروت لبنان، ط4، 1990م ص139.

[3]-ابن منظور: لسان العرب دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1994 مادة (ر ك ب).

[4]-المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: عبد الوهاب السيد عوض وآخرين مطابع الأغست، شركة الإعلانات الشرقية، 1985، ج1، ص381.

[5]-ينظر: حسين جمعة: المسبار في النقد الأدبي الحديث(دراسة في نقد النقد للأدب القديم وللتناص، منشورات اتحاد العرب، دمشق، 2003، ص55.

يتحدث عبد العزيز عتيق عن المنهج التكاملي في إطار حديثه عن المناهج السياقية ويعرفه بقوله" هو منهج يأخذ من كل منهج مما يراه معينا على إصدار أحكام متكاملة عن الأعمال الأدبية من جميع جوانبها "[6]. والمنهج التكاملي يقوم ب" تسخير جميع المدارس النقدية المناسبة في تكاملها من خلال الاستعانة بأبرز وأهم أدواتها والاستفادة من أدق أساسياتها قدر الإمكان"[7]. وهي لا تختص بالمناهج السياقية فقط وإنما تنفتح على المناهج النسقية أيضا . والتي عاد معها سؤال التركيب أقوى .كما تتعداها إلى كليهما ضما وتركيبا.

و الحق أن عودة الدعوة إلى تبني المنهج التركيبي (التكاملي) في مقاربة النصوص هو محاولة من النقاد" تعويض النقص الحاصل في الجانب التطبيقي لكل منهج"[8].

ويعتبر لوسيان غولدمان من النقاد الذين اشتغلوا في البنيوية التكوينية على النقد التكاملي (التركيبي) الذي جاء ردا على أحادية المنهج، حيث أقرّ بضرورة إدراج السياق التاريخي والاجتماعي والسيرة الذاتية للمنتج إلى جانب بنية النص اللسانية من خلال الآليات التي تربط بين النص الداخلي وسياقاته الخارجية، وبالتالي ربط المنهج بالبنيات اللسانية والثقافية والتاريخية والاجتماعية عند غولدمان يعتبر منهجا تركيبيا (تكامليا) [9]. أما في النقد العربي المعاصر فيعتبر محمد بنيس من أوائل النقاد الذين استخدموا المنهج التركيبي حيث جمع بين البنيوية التكوينية والمنهج الاجتماعي الجدلي في دراسته ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب مستفيدا بأكثر من منهج وذلك من أجل بلورة منهج آخر يكون أكثر تكاملا، ويمكّنه من النظر إلى النص الأدبي من منطلقاته الفكرية"[10].

---

[6]-عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت ط1، 1972، ص308.

[7]-د رمضان حينوني: المنهج التكاملي في النقد هل يصلح بديلا عن ضيق المنهج الواحد، مجلة إشكالات، المركز الجامعي، تمنراست ع 4، 2014، ص174.

[8]-المرجع نفسه، ص172 من المناهج الحداثية ".

[9]-انظر المرجع نفسه

[10]-للتوسع ينظر: يمنى العيد: في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط3، 1985، ص 121

ثانيا: مبررات وجود المنهج التركيبي (التكاملي):

لقد كان من مبررات وجود المنهج التركيبي عند النقاد العرب هو قصور المناهج النصانية والسياقية الغربية والتي تطبق على النص الأدبي في الوصول إلى معانيه ودلالاته، والوصول إلى كل فنيات وجماليات هذا النص، ومن ثم وجب استخدام هذا المنهج التكاملي الذي يعتمد على هذه المناهج: المنهج الاجتماعي والمنهج النفسي والمنهج التاريخي والمنهج الوصفي والاحصائي ثم البنيوية فالسيميائية فالتفكيكية فالتأولية. وهذا التعدد في المناهج يوحي بالتفاوت في فهم النص وتحديد جماليته وهذا التعدد في حد ذاته دليل على قصور منهج بعينه ما دمت نسبة العلمية والمنهجية في النقد الأدبي أكثر من الذوقية أو الفنية لأن الأمر يتعلق بالأدوات والخطوات والإجراءات والمعايير، وتبقى الفنية كغاية تصل إليها الخطوات العلمية، فالجمال هدف فني إمتاعي وطريقة الوصول إليه علم ومن ثم كان لاجتماع هذين العنصرين(الذوق والمنهج) المسوغ في الاعتماد على أكثر من منهج، يضاف إليها مقولة التركيب التي تعني الأخذ بأكثر من منهج أو أخذ أجزاء منها وضم بعضها إلى بعض يقول شوقي ضيف: "لم يوضع لدراسة الأدب والبحث في شخصياته، منهج واحد يعتمده جميع الباحثين الغربين، وكأنّ البحث الأدبي أعقد من أن يخضع لمنهج معين أو قل إنه لا يمكن أن يحتويه منهج بعينه ولذلك كان من الواجب على الباحث أن يفيد من كل هذه الدراسات جميعا وهي ما نسميها بالمنهج التكاملي حتى تنكشف له جميع الأبعاد في الأديب أو في الآثار الأدبية"[11]. ويلخص سعيد يقطين دواعي المنهج التكاملي عند شوقي ضيف في عنصرين هامين هما[12]:

1- تعقد النص: فالنص ذو بناء مركب ومعقد، ولذلك لم يوضع له منهج واحد لدراسته.

---

[11]-ينظر: شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه أصوله، مصادره، دار المعارف، مصر، ط7، دت، ص139

[12]-للتوسع ينظر: سعيد يقطين: النقد الأدبي العربي – النص والمنهج والعلاقة الملتبسة، المستقبل العربي، ع 418، كانون الأول / ديسمبر، 2013، ص87-88.

2- قصور المنهج: ويتجلى ذلك في عجز المنهج مهما كان نوعه، عن احتواء النص والإحاطة به. ومن ثم تصبح الحاجة ماسة إلى تحقيق تكامل المنهج، وهذا هو الحل للدارس كي يتمكن من الإحاطة بالنص وتعقيداته"[13].

وعلى مسافة من شوقي ضيف هناك نقاد تبنوا هذا المنهج أيضا واعتبروه وسيلة لتوسيع أفق النقد وحملوه بمصطلحات مختلفة كالنقد التكاملي أو النقد المتعدد أو المتكثر أو النقد الكلي أو الحواري: وإن آثروا مصطلح المنهج التكاملي إلا أن هناك من النقاد من اعتبروه منهج اللامنهج، لأنه يفتقد عندهم لعناصر محددة تجعله مستقلا عن أمثاله تماما كما هو الحال عند عبد المالك مرتاض الذي رأى " أن التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في المدارس النقدية الغربية ونرى أن لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في سبيل هذه التخمة التي منّي بها النقد من جراء ابتلاعه لمنهج تلوى الآخر خصوصا في هذا القرن، القرن العشرين"[14]. ويرى أيضا أنه "أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا ولا أقول منهجا تكامليا، إذ لا نرى أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي ترى أن الناقد يمكن أن يتناول النص بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق عمليا "[15]. وهو بهذا بالغ في السخرية من المنهج التكاملي الذي يرى فيه استحالة التطبيق لأن نقد النص الواحد هنا سيتطلب مجلدا أو أكثر إلا أن هناك من يرفض تماما فكرة المنهج التركيبي أو التكاملي كمحمد عزام ويرى أنه من المستحيل خلط هذه المناهج المتباينة للخروج بفرية منهج تكاملي " من منطلق أن خاصية تناص النص الواحد مع نصوص قديمة وحديثة، وتداخله معها، يمنع إمكانية نجاح هذا النوع في الوصول إلى الخصائص الأساسية"[16].

---

[13]-المرجع نفسه، ص90.

[14]-ينظر: تحليل الخطاب السردي ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1995، ص6.

[15]-نقلا عن: عليمة قاسي: جدلية النص والمنهج في قراءة الشعر العربي المعاصر، حوليات الأدب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر م1ع9، نوفمبر2017، ص 55

[16]-محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، ص69.

إن تباين الآراء حول نجاعة المنهج وعدم نجاعته، واختلاف النقاد عليه يعطي مشروعية تغليب كفة القبول من منطلق أن جل الدراسات الأكاديمية البحثية الآن، تحاول أن تحتمي بالتركيب المنهجي في بحوثها لضمان مصداقية أكبر لبحوثها، واستعارة الآليات الكفيلة بفك الإشكالات المرتبطة بالنص هذا من جهة، ومن جهة أخرى تضمن وجود منهج جديد في النقد الأدبي على الأقل عند أولئك الذين لا يريدون للمنهج الواحد أن يقيد الناقد ويبقيه في دائرة أسسه وقوانينه، لا سيما إذا أخذنا بالرأي القائل أن المنهج الواحد لا يمكن أن يفي المطلوب في تحليل النص وأنه قد لا يصلح لكل النصوص، فكل نص يحتاج إلى أدوات إجرائية قد لا يحتاجها نص آخر وبالتالي التركيب هنا أنجع لضمان عملية نقدية ناجحة.

ثالثا: حدود المنهج التركيبي(التكاملي):

لقد عمد النقاد العرب منذ انفتاحهم على الثقافة الغربية وتبنيهم لمذاهبها ومناهجها على تفعيل الآليات والإجراءات الكفيلة بتحليل النص العربي بالصورة التي تضمن إبداعيته وتميزه فجربوا كل المناهج سواء السياقية أو النسقية، وأدخلوا على مبادئها الإجرائية بعد التعديلات تماما كما فعل صلاح فضل مع المحور الاستبدالي في المنهج البنيوي حين أجاز تجاور دال من حقل دلالي ما، مع دال من حقل دلالي آخر[17]. محاولة منهم إثراء المشهد النقدي بما يغنيه ولكن أمام الإشكالات التي يطرحها سؤال المنهج دائما عمدوا إلى تبني المنهج التركيبي، في الحدود الآتية:

1-ضمان قراءة معقمة للنص دون تعمية أو غموض.

2-إيجاد السياق الذي يضمن ربط السياقي بالنسقي بما يجعل الذات الإنسانية مصدرا للأدب وأصله.

3- إيجاد الآليات التي تدعو إلى تقبل النص الأدبي وإدراك جماليته وقيمه بعيدا على التعصب لمنهج على آخر والذي يصل في بعض الأحيان إلى الخصومة النقدية

[17]-للتوسع ينظر: دسوقي ابراهيم محمد، حسين البنا عز الدين: مناهج النقد الأدبي المعاصر – تنظيرا وتطبيقا –، ص190.

4-ربط النص بمرجعياته المعنوية والجمالية بوصف النص العربي في أبعاده يتوافق وهذه النظرة المنهجية الشمولية.

إن المنهج التركيبي بتداعيات الدراسات النقدية، التي تعتمد عليه لا يمكن أن يكون منهجا كاملا، إلا أنه يبقى منهجا اقترحه النقاد لفك الاضطراب الموجود على مستوى المناهج المختلفة، على اعتبار أن الجمع بين بعضها البعض يدعم النقد التطبيقي ويفتح أفق التلقى على أبعاد قد لا تدرك في النص إلا به.